الخطاب الإسلامى بين العالمية والعولمة

إعداد

الدكتور/ محمد صلاح عبده

الأستاذ المشارك بكلية التربية

عبرى / سلطنة عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين...

وبعد،،،

فقد خلق الله تعالى الإنسان وتعرف إليه عن طريق رسله الذين قاموا بدعوة البشر إلى ربهم؛ ولهذا كان التدين فطرة فطر الله الناس عليها ، لأنه عنصر ضرورى لتكميل القوة النظرية فى الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا.

ثم هو فوق ذلك عنصر ضرورى لتكميل قوة الوجدان، فالعواطف النبيلة من الحب، والشوق، والشكر، والتواضع، والحياء، والأمل، وغيرها إذا لم تجد ضالتها المنشودة فى الأشياء ولا فى الناس، وإذا جفت ينابيعها فى هذا العالم المتبدل المتبدد وجدت فى موضوع الدين مجالاً لا تدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معينه.

وأخيراً هو عنصر ضرورى لتكميل قوة الإرادة يمدها بأعظم البواعث والدوافع ويدربها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط.

وهكذا نرى الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها[1].

وإذا كان هذا القول صادقاً على نزعة التدين بصورة عامة فى النفس البشرية فإنها تزداد صدقاً ورسوخاً إذا تم تخصيصها فى الإسلام وهو الدين الذى ارتضاه الله تعالى للبشرية من لدن آدم وحتى قيام الساعة، جاءت به الرسل ودعت إليه أقوامها، إلى أن ختمهم الله تعالى برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، الذى أرسله للناس كافة؛ ولهذا جاءت رسالته صالحة لكل زمان ومكان، فهى رسالة عالمية إذا استخدمنا المصطلح العصرى، ومن أبجديات الثقافة الإسلامية أن يتعرف من يتعامل معها على "عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم للناس جميعاً"، ورغم وضوح الفكرة

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٩٠م.

وصيرورتها - على مدار التاريخ الإسلامى - مما علم من الدين بالضرورة إلا أنها تتمتع بالصدق الذاتى بما توفر لها من الأدلة على صحتها نظرياً وتطبيقياً.

عالمية الإسلام من الناحية النظرية:

جاء الخطاب الإسلامى صريحاً فى إثبات عالمية هذا الدين الخاتم من خلال نصوص القرآن الكريم والصحيح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن آيات القرآن الكريم قوله تعالى: " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"(٢) ، وقوله تعالى : "ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيدا"(٣)، وقوله تعالى: "قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحى ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون(٤).

وجاء الخطاب الإسلامى فى السنة النبوية المطهرة مؤكداً على عالمية رسالة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، وقد جاءت الأحاديث فى كتب الصحاح تنص صراحة على ذلك ومنها ما رواه الإمامان: البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون".

إذاً ليس ثمة ريب فى أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله عز وجل إلى كل البشر دون تفرقة بسبب الجنس أو القومية أو الحدود أو اللغة أو اللون.

إن عالمية الرسالة المحمدية حقيقة ثابتة لا مراء فيها(٥) ، ولهذا لم يسأل الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم جهداً فى تحويل الإطار النظرى

---

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.
(٣) سورة النساء: الآية ٧٩.
(٤) سورة الأعراف: ١٥٨.
(٥) د. عبد الرحمن بدوى: دفاع عن القرآن ضد منتقديه – صـ١٨ – الدار العلمية للكتب والنشر – القاهرة ١٩٩٩م.

العالمـــية رســـالته إلى تطبيق عملى جسده بنفسه وتحول إلى حقيقة واقعية تاريخية.

عالمية الإسلام من الناحية التطبيقية:

دخول غير العرب فى الإسلام:

نلاحظ فى بداية الدعوة الإسلامية تمثيلاً عالمياً لكثير من الأعراق دخلـت الإســلام بصرف النظر عن جنسها ولغتها ولونها، وقد كانت هذه العناصــر تشــكل البذرة الأساسية لأمة الإسلام التى لا تعتمد فى تركيبها على جنس دون جنس؛ لأن الأمة بالمعنى الإسلامى هى انتماء عقدى دينى ولــيس انتماء عنصرياً لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق، ومن ثم فقــد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التى استجابت لرسالة الإسلام بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر فقد كان فيها من الصحابة غير العرب: سلمان وبلال وصهيب[٦].

دعــوة الرســول صلى الله عليه وسلم حكام العالم للدخول فى الإسلام:

قــام الرســول صلى الله عليه وسلم باتخاذ خطوات عملية لتحقيق عالمــية رسالته ، فقد اتصل بالأنظمة الحاكمة فى عصره عن طريق إيفاد مبعوثين لدعوة أصحابها إلى الإسلام.

فقــد أرســل صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم، وكسرى ملــك الفرس، والنجاشى ملك الحبشة، والمقوقس عظيم الأقباط فى مصر، وحــاكم البحرين، وحاكمى عمان[٧]، وقد تفاوتت ردود أفعال هؤلاء الحكام علــى رســائل رســول الله صــلى الله عليه وسلم بين الاستجابة والتوقف والرفض.

فممــن اســتجاب لدعوته ودخل فى دينه عبد وجيفر ابنا الجلندى حاكمــا عمــان، كمــا ورد فــى البخارى ما يثبت أن النجاشى دخل فى

---

(٦) د. ســعيد إســماعيل على: رؤية إسلامية بقضايا تربوية – صــ٤٦ – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٩٣م.

(٧) د. راجح عبد الحميد الكردى، و د. ماجد محمد أبو رخية: السيرة النبوية – مكتبة الضامرى – مسقط ١٩٩٨م.

الإسلام[٨]، وقد نقل ابن قيم الجوزية رواية للواقدى ذكر فيها أن النجاشى كتب رداً على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: بلغنى كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد عما ذكرت تفروقا (علامة تكون بين النواة والتمرة) ، إنه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين"[٩].

وممن توقف عن إعلان موقف حاسم من دعوته صلى الله عليه وسلم هرقل والمقوقس، وإن كان ما ورد عنهما يؤكد أنهما كانا يميلان إلى تصديق دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ولكن حالت اعتبارات بينهما وبين الإيمان بها لا دخل لها برسالته، فقد دار حوار طويل بين هرقل وأبى سفيان - قبل إسلامه - حول نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ختمه هرقل بقوله يخاطب أبا سفيان: "... فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لكم أكن أظن أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه".

وقد قام هرقل بعرض الإيمان بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه بعد أن اجتمع بهم وأغلق الأبواب عليهم وخاطبهم قائلاً: "يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى؟"، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت،

(٨) ورد فى صحيح البخارى عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين مات النجاشى: مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة، وفى حديث آخر أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشى .. باب موت النجاشى، وأحاديث الباب تثبت دخول النجاشى فى الاسلام، حيث لامعنى لصلاة الجنازة على غير مسلم!!.

(٩) ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى - صـ ٣٤،٣٥ - مؤسسة مكة للطباعة والإعلام.

فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم على: وقال: إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت[١٠].

وقد أعلن المقوقس موقفاً شبيهاً بهذا فقد قال تعليقاً على كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له: "إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة من إخراج الخبء والإخبار بالنجوى.

وقال: إن القبط لا يطاوعوننى فى اتباعه، وأن أضن بملكى أن أفارقه"[١١].

ومهما يكن من أمر هؤلاء وغيرهم استجابة أو توقفاً أو رفضاً فالمستفاد هو محاولة النبى صلى الله عليه وسلم الخروج بالدعوة من الجزيرة العربية إلى آفاق أوسع خطاً من خلال اتصاله بالأنظمة الحاكمة فى عصره خطوات مبكرة نحو تحقيق عالمية رسالته.

الاتصال بالعالم:

أ- استيعاب الأغيار:

لم تمض سوى سنوات قليلة على ظهور الإسلام حتى صار معروفاً على الساحة العالمية، وقد نشأت علاقات إيجابية وسلبية بين أتباعه وأتباع الديانات الأخرى وقد تأكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجبر أحداً من الناس على اعتناق الإسلام، وقد استن خلفاؤه الراشدون بسنته، ولهذا وجدنا بقاء كثير من سكان البلاد التى تم ضمها للدولة الإسلامية فى عصر الفتوحات على دينهم الأصلى، واللافت للنظر فى هذا المقام هو الحرية التى كانوا يتمتعون بها سواء فى بقائهم على عقائدهم أو فى ممارسة شعائرهم الدينية دون تضييق أو إعنات.

وترجع جذور هذه المسالك الراقية من حكام المسلمين إلى اقتدائهم بالرسول العظيم صلى الله عليه وسلم الذى عقد معاهدة مع اليهود فى صدر الإسلام عندما هاجر إلى المدينة المنورة وأراد أن يجعل منها وطناً

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه: كتاب بدء الوحى.

(١١) ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى - صـ ٣٥ - مرجع سابق.

واحـداً للعرب واليهود، وأن يجعل من الفريقين أمة واحدة تجمعها جامعة الوطـن، ولا يفرق بينها اختلافها فى الدين، فأبطل ما كان بين أهل المدينة قـبل الإسـلام مـن المعاهدات المفرقة الظالمة، وعقد بينهم معاهدة تحقق الأغـراض الـتى أرادها لهم، وتجعلهم أمة واحدة على أعدائهم وكتب بها كتاباً بين المهاجرين والأنصار واليهود(١٢).

وقـد عـاهد النبى صلى الله عليه وسلم نصارى نجران، وجاء فى عهـده لهم "... ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهـم مـن قلـيل أو كثـير لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية .."(١٣).

وقـد تحولت هذه البنود إلى أسس تم احترامها وتنفيذها حرفياً فى الـتاريخ الإسـلامى وخصوصاً فى عصر النبوة والخلافة الراشدة، ورأينا اعـتراف الحكام المسلمين للأقليات غير المسلمة بحرمة أموالهم، وأنفسهم، وحمايـة ممـتلكاتهم الخاصة، والحرص على مودتهم، ووصل الأمر فى بعض الأحيان إلى تعيينهم فى الوظائف العامة والمناصب الحساسة(١٤).

وذلـك كله مستمد من تعاليم الإسلام السمحة التى تتحول من أفكار نظـرية إلى سلوك عملى، فالإسلام لا يعرف التعصب الذميم الذى تزاوله الصـليبية والصهيونية والوثنية ضد الإسلام والمسلمين فى جنبات الأرض علـى مدار التاريخ، إنه لا يعرف إكراه أصحاب المعتقدات الأخرى على اعتـناق عقـيدته، ولكنه كذلك لا يقر هذه المعتقدات ولا يعترف بصحتها، وهـى باطلة من الأساس أو منحرفة عن دين الله كما نزله على رسله، إنه لا يعـرف اضـطهاد أصحاب المعتقدات المخالفة له وهم يعيشون معه فى سـلام فـى دار الإسلام التى يحكمها الإسلام، بل تجعل لهم ما للمسلمين

---

(١٢) الشـيخ عـبد المـتعال الصـعيدى: السياسـة الشرعية فى عهد النبوة – صـ ٥٦ – دار الفكر العربى – انظر سيرة ابن هشام ٣٤٨/٢.

(١٣) د. عـبد المـنعم بركة: الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين – صـ ١٥٠– الإسكندرية ١٩٩٠م.

(١٤) المـرجع السـابق: صـ١٦٣-١٦٩ و صـ ١٧٨ – وكذلـك صـ ٢٣١-٢٥٦.

وعليهم ما عليهم، ويكفل لهم الرعاية والكفالة، ولكنه كذلك لا يتعاون معهم فى شأن من شئون العقيدة، إذ أنه لا محل لهذا التعاون ولا موضوع.

إنـه لا يعرف المذابح الوحشية التى قامت بها محاكم التفتيش فى الأندلـس والصـليبيون فـى بيت المقدس والأحباش فى الحبشة وأرتيريا والصـومال، وفرنسا فى الجزائر، وروسيا والصين فى التركستان والقرم وخوزسـتان وأوزبكسـتان ويوغسـلافيا فى أقاليمها المسلمة، والهند فى أرضها ضد المسلمين حيث ذبحوهم بعشرات الملايين.

بـل إن الإسـلام هو الذى حمى أهل مصر والشام المسيحيين من إخوانهم المسيحيين الرومانيين(١٥).

ولـو رأى هذا الكاتب ما حدث للمسلمين فى العقد الأخير لأضاف بدموعـه إلـى شهادته المأساوية ما جرى للمسلمين فى البوسنة والهرسك وألبانيا والجبل الأسود ومقدونيا ... إلخ.

إنـنا فـى صياغتنا هذه لا نصدر عن حمية أو نحتكم إلى عاطفة إيمانية لا تستند إلى واقع بل نذكر وقائع ثابتة تاريخياً، ولنستمع إلى شهادة رجـل غـربى تؤكد ما ذكرناه: "كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصـارهم، وأن يقـترفوا مـن المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملـة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشـره فى العالم، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت غير خاضـعة لهـم بعـد، ولأصابهم مثلما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سوريا مؤخراً، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كـان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة أن الـنظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا كما رأينا أهل سوريا ومصـر وأسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً فى مقابل حفظ الأمن بينهم.

---

(١٥) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى – صـ ١١٦ – دار الشروق – ط ٤ لعام ١٩٨٨م.

فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم[١٦]. ولو تم العثور على نماذج مخالفة لهذا الخط العام فإنها الاستثناء الذى لا يؤثر على القاعدة، ومن ناحية أخرى فإن خيانة الأقليات غير المسلمة والتى كانت تعيش داخل الدولة الإسلامية هو الذى أدى ببعض الحكام إلى التضييق عليها، ومعاملتها بما تستحق.

ب- استقبال الأفكار:

إن الإسلام استوعب الأغيار الذين بقوا على دينهم، وعاشوا تحت رايته، ولم يؤثر ذلك على نقائه ولا على عالميته، وكما تم ذلك فى عالم البشر حدث شئ مواز له فى عالم الفكر، حيث استقبل الإسلام الفكر المغاير وأعاد صياغته، ووظف المقبول منه توظيفاً فى صالح عقيدته وتعاليمه، فلقد ترجم الفكر الإغريقى القديم، واستخدم المتكلمون المسلمون المنطق الأرسطى لنصرة قضاياهم الدينية.

بل وصل الفكر المغاير إلى ما هو أبعد من ذلك حيث تجاوز دائرة المقبول إلى اللامقبول: فلسفياً وكلامياً وصوفياً، وتسلل كثير منه إلى التفسير وهو ما اصطلح عليه بالإسرائيليات وإلى الحديث وهو ما يسمى بالموضوعات.

المهم هو حضور الفكر المغاير على ساحة الثقافة الإسلامية، فالإسلام هو الذى ورث حضارات بلاده القديمة من فرعونية وآشورية وفينيقية وغيرها فنماها وأثراها ومزج بينها وبين أيديولوجيته الجديدة وجمعها مع الحضارات الأخرى المعاصرة لها، وصبها جميعاً فى بوتقة جديدة كانت هى التى بددت ظلمات التخلف فى العصور الوسطى، ومكنت الغرب المتخلف من أن ينتقل من حالة التخلف والجمود إلى حالة من النشاط والحركة قفزت به إلى وضعه العالمى الراهن[١٧].

---

(١٦) جوستاف لوبون: حضارة العرب – صـ ٦٠٥ – ترجمة عادل زعيتر – ط عيسى البابى الحلبى.

(١٧) د. سليمان عبد ربه محمد: دور التربية الدينية الإسلامية فى بناء الشخصية المسلمة فى ضوء ملامح النظام العالمى الجديد – ٤١٥/٢ – ضمن أبحاث المؤتمر العاشر بكلية التربية جامعة المنصورة ٢١-٢٢ ديسمبر ١٩٩٣.

إن هناك نفراً من أحاب العقول الساذجة والفكر المريض يتوهمون ويوهمون الناس أن لإطلاعهم على الرأى الآخر والنظريات المخالفة والأفكار المضادة من شأنه أن يحول فكرهم إلى ذلك الاتجاه، ومن ثم فإنهم يضعون بين الناس وبين تلك الأفكار والنظريات سداً منيعاً وحاجزاً ضخماً لكن الحضارة الإسلامية أثبتت أن هذا غير صحيح، فلقد عرف المسلمون - مثلاً - أن الحضارة الفارسية إنتاج أناس كفرة فى الأغلب والأعم ومع ذلك لم يرفضوها ولم يسدوا فى وجهها الباب بل انكبوا عليها يدرسونها ويتأملونها، وبل ويترجمون ثمراتها إلى اللغة العربية، فلم تتزعزع عقيدة الإسلام ولم يضعف أمر المسلمين.

وعرف المسلمون أن ثقافة اليونان والرومان أيضاً مثل ذلك ثمرة أناس غير مسلمين، ومع ذلك مدوا أيديهم إلى إنتاجهم يعبون منه بقدر ما يستطيعون فأفادوا واستفادوا[١٨].

الاتصال بالعالم حديثاً فى ظل العولمة:

لم يتوقف تواصل المسلمين مع غيرهم منذ صدر الإسلام وحتى العصر الحديث، وقد شهد العالم تغيرات هائلة فى القرن السابق فى ظل تقلص القوى العالمية وتسليم العالم زمام أمره لقوة واحدة تقوده دون جدارة أو استحقاق وهى الولايات المتحدة الأمريكية فى ظل ما يسمى بالعولمة.

ومما يؤسف الباحث - دائماً - هذه النظرة العدائية التى ينظر بها غير المسلمين للمسلمين - قديماً وحديثاً - والتى تحولت من مجرد العدائية النظرية إلى العدوانية العملية تأليفاً واستغلالاً وحرباً واستعماراً واختراقاً للشعوب الإسلامية تحت ما لا يحصى من الشعارات، ومن خلال ما لا يحصى من الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

وقد تناولت الأقلام بالرصد والبحث والاستقراء نتائج التغيرات التى تعرض لها العالم فى العقود الأخيرة من القرن الماضى، ورأينا - قبل العولمة - ما يسمى بالنظام العالمى الجديد، ولم ترق هذه التسمية لبعض الباحثين الذى كتب يقول: "اللانظام العالمى اللاجديد هو تلك الفوضى

---

(١٨) د. سعيد إسماعيل على: رؤية إسلامية لقضايا تربوية – صـ ٤٦ – مرجع سابق.

الدولية التى تثيرها قلة من دول العالم معتمدة على قوتها العسكرية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والحضارية لتحقيق أهداف لها مشروعة وغير مشروعة تحت ستار المؤسسات الشرعية الدولية وبشعارات ما هى إلا دعاوى وهمية ليس فيها شئ من الجدة على الإطلاق، بل قديمة قدم التاريخ البشرى ذاته"(١٩).

ثم أخذ يذكر مخاطر ما أسماه باللانظام العالمى اللاجديد ونلخصها فيما يلى:

١- عدم مصداقية اللانظام العالمى اللاجديد.
٢- عدم إنسانيته.
٣- الغزو الاقتصادى.
٤- السعى للقضاء على الإسلام ومحاربته(٢٠).

والغرب يصدر فى سعيه للقضاء على الإسلام عن عداء بغيض يتوارثونه منذ قرون طويلة، فالمشكلة هى مشكلة الغرب معنا، والعداء عداؤه لنا، لأنه يرى حضارته الحضارة "الإنسانية الوحيدة" فيسلك كل السبل لفرض نموذجها على العالم "لا كرسالة حضارية" مجردة، وإنما كسبيل وآلية من سبل وآليات الإلحاق السياسى والاقتصادى والعسكرى،.

إنه يريد - فى الحضارة - كما فى السياسة والاقتصاد والأمن - تابعين - بل وعملاء لا أنداداً وشركاء.

أما النظرة الإسلامية فإنها تريد العالم "منتدى حضارات" تتفاعل دونما تبعية وإلحاق، ودونما عداوة وانغلاق، وذلك لأن ديننا يعلمنا أن ماعدا الذات الإلهية الواحدة قائم على التعددية والتوازن والارتفاق.

ففى الشرائع تعددية "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون"(٢١).

---

(١٩) د. السيد عبد العزيز البهواش: دور التربية الإسلامية فى تنمية الشخصية المصرية لمواجهة اللانظام العالمى اللاجديد ٤٢٣/٢ - ضمن أبحاث المؤتمر العاشر لكلية التربية جامعة المنصورة - ٢١-٢٢ ديسمبر ١٩٩٣م.
(٢٠) السابق: صـ ٤٢٩-٤٣٥.
(٢١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

وفى الألسنة والألوان - أى فى القوميات والأجناس - تعددية "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لأيات للعالمين"(٢٢).

وفى الشعوب والقبائل - حتى فى داخل الدين الواحد والحضارة الواحدة - تعددية "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"(٢٣).

فالأصل فى النظرة الإسلامية هو "التعددية"، والاعتراف "بالآخرين"، وما يريده المسلمون هو قبولهم كأصحاب هوية حضارية متميزة، لا يريدون أن يكونوا "بديلاً للآخرين - فبديلهم الإسلامى هو لنهضتهم الإسلامية - ، ولا يريدون أيضاً لنموذج الآخرين الحضارى أن يكون بديلاً لنموذجهم الإسلامى(٢٤).

هذه هى وجهة نظر المسلمين، ولكن العالم - اليوم - يبحث عن عدو جديد، ولا يجد الغربيون حرجاً فى إعلان نواياهم على مستوى قادة الفكر أو السياسة، ولنأخذ نموذجين يعبران عن وجهتى نظر متآزرتين، فمحرر مجلة شؤون دولية يصرح بما لا يدع مجالاً للشك بأن الإسلام هو هدف الحملة الغربية الجديدة، وفى ذلك يقول: "... نحن فى وقت يسود فيه انطباع قوى بتضاعف الإشارات إلى المسيحية فى السياق الدولى، والقضية هى ما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى من خلال صراعات "كثيرة وطويلة ومؤلمة"؟، أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى / الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديمقراطية علمانية.

ويعكس هذا الطرح إلى أى مدى يميل الفكر الغربى إلى جعل الحضارة المسيحية - اليهودية / الغربية هى الحضارة المهيمنة، وجعل أفكارها مطلقة، وليست مجرد ثقافة بين ثقافات عديدة يعج بها العالم.

---

(٢٢) سورة الروم: الآية ٢٢.
(٢٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٢٤) د. محمد عمارة: الإسلام والتحديات الجديدة - صـ ٥٣،٥٤ - ط. ندوة الثقافة والعلوم - دبى ١٩٩٣م.

والإسلام من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى لمجتمعات يسودها مذهب اللاإرادية وفتور الهمة واللامبالاة، وهى آفات من شأنها أن تؤدى إلى هلاك تلك المجتمعات ماديا فضلاً عن هلاكها المعنوى"[٢٥]، ورغم النبرة العدائية الواضحة فى هذا التحليل الصريح إلا أنه تنبأ بهلاك المجتمعات الغربية مادياً ومعنوياً، ولكنه أغفل السبب الحقيقى لهذا الهلاك، وهو بعدها عن الدين، فإن المتأمل لخريطة العالم الجديد وقواه السياسية والاقتصادية الحاكمة يأسف إذ يقرر أن تلك القوى بحكم طبيعتها البعيدة عن هدى السماء إنما هى قوى تغلب عليها فكرة السيطرة على الطبيعة بواسطة العلم ، والسيطرة على الإنسان بواسطة التقنية، والسيطرة على الشعوب المستضعفة بواسطة القوة العسكرية والاقتصادية ...

ومثل هذه القوى لا ينتظر منها أن تقود العالم إلى سلام حقيقى أو عدالة حقيقية، بل من المنتظر أن تقود العالم إلى مزيد من الانغماس الكامل فى اللهو والمجون والسكر والجنس والعنف الذى يشمل الأفراد والشعوب والدول[٢٦].

أما النموذج الثانى الذى يمثل سياسة الغرب هو ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية الذى يصطاد النماذج العنيفة التى تترجم عن غضبها وتعبر عن شعورها بالنظام بصورة حادة ولا يخفى عداءه للإسلام ولا يخفف منه، وفى ذلك يقول: "إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء، وقليل من الأمريكيين يدركون مدى عراقة العالم الإسلامى، إنهم يتذكرون فقط أن سيوف محمد وأتباعه هى السبب فى انتشار الدين الإسلامى فى آسيا وأفريقيا وحتى فى أوروبا، وينظرون بارتياح إلى الحروب الدينية فى المنطقة.

---

(٢٥) السابق: صـ٢٤،٢٣ – نقلاً عن مجلة شؤون دولية – المجلد ٦٧ – العدد ١ – يناير ١٩٩١م.

(٢٦) د. عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب: التربية الإسلامية فى مواجهة النظام العالمى الجديد – صـ١٣،١٢ – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٩٧م.

ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون – بالمصادفة – على بعض الأماكن التى تحوى ثلثى البترول الموجود فى العالم.

ويتذكرون أيضاً احتجاز الرهائن الأمريكيين بواسطة آية الله خمينى المتطرف، وكذلك هجوم الإرهابيين على القرية الأوليمبية فى ميونخ بواسطة جماعة أيلول الأسود، والمذابح التى لا نهاية لها ولا معنى بين الميليشيات المسلحة فى لبنان، وتفجير الطائرات المدنية بواسطة السوريين واللبنانيين، وغزو الكويت الذى قام به صدام حسين تشبهاً بهتلر.

وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة – حتى بالنسبة للصين الشيوعية – فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى.

ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة متطرفة، وأنه مع التزايد السكانى والإمكانات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى.

ويزيد هذا الرأى بأن الإسلام والغرب متضادان، وأن نظرة الإسلام إلى العالم تقسمه إلى قسمين: "دار الإسلام"، و "دار الحرب"، حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفيتى ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة"[٢٧].

ولن نعلق على ما امتلأ به هذا النص من مغالطات وعلى رأسها التهمة الشائعة التى يتشدق بها خصوم الإسلام وهى انتشار الإسلام بالسيف.

ولا يتوقف العداء للإسلام وأهله عند حد، ويتجلى فى مظاهر لا حصر لها فنجد التعبير عنه وإعلانه واضحاً فى المؤلفات والمؤتمرات

---

(٢٧) د. محمد عمارة: الإسلام والتحديات الجديدة – صـ ٤٦،٤٥ – مرجع سابق – نقلاً عن: الفرصة السانحة: ريتشارد نيكسون – ترجمة أحمد صدقى مراد – القاهرة ١٩٩٢م.

والفضائيات وشبكة الإنترنت، والمسلمون يردون ولكن لا يتوازن الرد مع الكم الهائل للهجوم على الإسلام وعلى أهله(٢٨).

والأمر يحتاج إلى ما هو أبعد من الردود المباشرة على الموجات المتتابعة من الهجوم على الإسلام والمسلمين.

إن المسلمين - بصفة عامة - عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم فى التواصل مع العالم فى عصر العولمة.

إنهم مطالبون أكثر من أى وقت مضى بالتعامل مع هذا العصر بلغته، والإفادة من أدواته، واستخدام آلياته وقنواته ما لم تتعارض مع أصول دينهم، ومرجعيتهم الشرعية.

والمثقفون من المسلمين عليهم عبء مضاعف، فهم مطالبون بعدم إعلان العداء لهذا العصر؛ لأنه موقف سلبى بحت لابد أن يعقبه موقف إيجابى، وهو الدخول إلى هذا العصر بهدف التعريف بالإسلام، وتصويب الفكر المنحرف فى وعى غير المسلمين عن الإسلام وأصوله ورموزه.

والإسلام مؤهل بحكم صلاحيته للتطبيق فى كل زمان ومكان على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب لقيادة العالم، بشرط أن يتعرف العالم على الإسلام الحق ونظرته للإنسان والكون والحياة.

فالإنسان فى التصور الإسلامى هو هذان العنصران المختلفان مترابطين ممتزجين فى كيان واحد:

---

(٢٨) يرصد ألأيكسى جورافسكى الصورة التى تكونت فى الوعى الأوروبى للإسلام فى القرون الوسطى والعصر الحديث ويذكر عشرات النماذج من المؤلفات المعادية للإسلام.
= انظر: الإسلام والمسيحية، تأليف أليكسى جورا فسكى - ترجمة د. خلف محمد الجراد - عالم المعرفة - الكويت - ١٩٩٦م.

ومن الردود التى عنى أصحابها بدحض الافتراءات على الإسلام وأصوله:

- الإسلام فى مرآة الفكر الغربى: د. محمود حمدى زقزوق - دار الفكر العربى - القاهرة - ط٤ - ١٩٩٤م.
- دفاع عن القرآن ضد منتقديه: د. عبد الرحمن بدوى - الدار العالمية للكتب والنشر - القاهرة ١٩٩٩.
- دفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم ضد المنتقصين من قدره: د. عبد الرحمن بدوى - الدار العلمية للكتب والنشر - القاهرة - ١٩٩٩.

قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.

قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية: الأوكسجين، والأيدروجين، والكربون، والكالسيوم، والفوسفور ... إلخ وتتمثل فيها رغائب الأرض وضرورات الأرض.

ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية، وقوة الوعى المدركة، وقدرة النفس المريدة، وهذان معاً يكونان الإنسان(٢٩).

الإنسان فى التصور الإسلامى هو هذا الكائن بعينه الذى يدب على هذه الأرض بفرديته العميقة، وجماعيته العميقة كذلك، بحوافزه الفردية التى لابد أن تراعى وأن تلبى، وحوافزه الجماعية التى لابد أن تراعى وأن تلبى.

بكينونته هذه المزدوجة الممتزجة المتنوعة الطاقات والاستعدادات الجسمية العقلية الروحية التى لا تنفصل ولا يتوارى عنصر من عناصرها الممتزجة المركبة، والتى لابد أن تراعى جميعها، وأن تلبى، وأن يعمل حساب الفارق العميق بينها وبين الآلة والحيوان.

ومن هذه القاعدة يأخذ الإسلام بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه، ويحترم ذاته وفطرته وكينونته الفريدة، ويضع له المناهج التى تعامل هذا الإنسان وهو فرد، وتعامله وهو عضو فى جماعة، كما تعامله وهو هذه الكينونة المزدوجة الممتزجة المركبة.

ومع اعتبار الإسلام لإنسانية الإنسان هذه من جميع الوجوه ومعاملته بمنهاج ملحوظ فيه هذه الإنسانية كاملة فقد استطاع أن يصل بالناس فى فترة من الفترات إلى مستوى لم تبلغ إليه البشرية فى جميع الأجيال، وحقق نموذجاً من الحياة الواقعية تسوده قيم وتصورات فردية جماعية عميقة فى تكوين الضمير الفردى عمقها فى علاقات المجتمع الواقعية بصورة لم يسبقها ولم يلحقها نظير(٣٠).

---

(٢٩) محمد قطب: منهج الفن الإسلامى - صـ ٣٣ - دار الشروق - القاهرة - ط٦ - ١٩٨٣م.

(٣٠) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى - صـ ٣٧٥ - دار الشروق - القاهرة - ط٤ - ١٩٨٨م.

إن مقومات التصور الإسلامى ، وخصائص الشريعة الإسلامية وكمالها وعالمية خطابها أسس وركائز لابد أن تكون معلومة لدى غير المسلمين بواسطة التعريف بها عن طريق استخدام القنوات والآليات التى أتاحتها العولمة.

فلا معنى للتقوقع أو الانعزال أو الانغلاق بحجة الحفاظ على هويتنا وخصوصية ثقافتنا من غزو الفكر الوافد، والثقافة الدخيلة، فقد اقتحم العالم أجواءنا وصار الفضاء مفتوحاً أما الأصيل والوضيع والصحيح والسقيم، ومن التهم الجاهزة التى توجه إلينا أننا مولعون بإلغاء الأغيار، وعدم الاعتراف بما يسمى "بالآخر" وهى تهمة كاذبة، يكذبها الإسلام ويثبت عكسها نظرياً وعملياً، فقد استوعب الإسلام الأغيار، واستقبل الأفكار، واعترف بالآخرين حتى لو لم يؤمنوا به، أو يعترفوا برسوله، وقد ذكر القرآن الكريم عقائد الآخرين وتصوراتهم قبل أن يعلن عقيدة التوحيد.

إن ما نود التأكيد عليه هو أن التربية الإسلامية يستحيل أن تربى أبناءها على مخاصمة الآخر الذى لا يعتقد نفس الشئ ...

إن أهمية الحوار مع الآخر ضرورة من وجهين:

الأول: أن الحوار معه يتيح لنا أن نعرفه بما نملك من فكر واتجاهات.

الثانى: أن الحوار مع الآخر ينبهنا فى كثير من الأحيان إلى جوانب ربما لم ننتبه إليها.

وتاريخ الفكر الإسلامى زاخر بالأمثلة على هذا وكيف أدى الحوار مع الآخر إلى أن يستعين فلاسفة المسلمين بالزاد الفلسفى الذى وجدوه فى تراث اليونان ليطرقوا مجالات لم تكن مطروقة، ويصطنعوا أساليب لم تكن معروفة[٣١].

---

(٣١) د. سعيد إسماعيل على: التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادى والعشرين – صـ ١١٤،١١٥ ضمن محاضرات المؤتمر التربوى الأول – جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان – ٧-١٠ ديسمبر ١٩٩٧م.

وإذا كان العصر القادم "عصر كوكبيا" ستضمحل فيه إلى حد كبير الروابط والدول القومية والكيانات الصغيرة، وتختنق رويداً رويداً فلا مفر من تداخل الثقافات بصورة أكثر فواجب المسلم أن يأخذ من هذه الثقافات ما يتناسب مع ثقافة مجتمعه، فالإسلام يدعو للإنفتاح على الغير ولكن بحذر[٣٢].

إن أخشى ما يخشاه الباحث هو أن يتنادى المتخصصون فى الدراسات الإسلامية بالعزلة والانغلاق والعودة إلى الوراء، والخروج من العصر.

إن بإمكان مسلمى هذا الزمان أن يتعاملوا مع هذا العصر بآلياته دون التخلى عن دينهم وعقائدهم وحضارتهم وخصوصيتهم الثقافية.

بل إن المكاسب التى يرجى تحقيقها من التواصل مع العصر تفوق بكثير المكاسب التى يمكن تحصيلها إذا استخدمنا منهج "فقه الانغلاق" إذا افترضنا أنه يؤدى إلى أية مكاسب ولنختم البحث بسماع هذا الصوت الصادق القادم من هناك وهو يقول: "إن الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرماته ولا من جهود النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها، وإنما من شئ يشمل هذا كله ويسمو عليه: من لحظة فارقة تتقدح فيها شرارة وعى باطنى .. من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان .. من التهيؤ لاحتمال كل ما يأتى به الوجود .. من حقيقة التسليم لله .. إنه استسلام لله .. والاسم إسلام"[٣٣].

تم بحمد الله،،،

---

(٣٢) د. سليمان عبد ربه محمد: دور التربية الدينية الإسلامية فى بناء الشخصية المسلمة فى ضوء ملامح النظام الجديد ٢/٤١٥ – مرجع سابق.

(٣٣) على عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب – صـ ٣٩٦ – ترجمة: محمد يوسف عدس – ط بيروت ١٩٩٤.